في الأدب المقارن

الشعر والنثر

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ خفري أبو السعود

الشعر أسبق ظهوراً من النثر في عالم الفن الذي يحتفي صاحبه بانشائه وتنميقه، ويتعمد إيداعه شعوره وأفكاره على نحو جميل يراد له السيرورة والبقاء. فالشعر يظهر ويرقى والأمة ماتزال متبدية قليلة الحظ من الثقافة وأسباب العمران، أما النثر الفني فلا تدعو الحاجة إليه ولا تتم وسائله إلا في أمة متحضرة مستقرة واسعة الثقافة منتشرة فيها الكتابة الخطية، فالكتابة الخطية تتيح للكاتب أن يتوفر على إنشاء النثر المنمق، الذي يحوي تعمقاً في التأمل واتصالا في المجهود الأدبي وتدبيجاً للفظ، وتتيح أيضاً للنثر الفني أن يبقى ويذيع. أما الشعر فهو غنى بموسيقاه ورويه عن تقييد الطروس، وهو أهل للنهوض بحاجة الأمة المتبدية، من التعبير عن عواطفها وأفكارها البسيطة؛ ومن ثم ارتقى الشعر الإغريقي كما يتمثل في ملاحم هوميروس رقياً عظيما، والأمة ماتزال إلى البداوة أقرب، وتطور حتى تفرع منه فن جديد هو فن التمثيل، كل ذلك قبل أن تتوطد قواعد النثر اليوناني، وقبل أن يبلغ مبالغه على أيدي هيرودوت وثيوسيد وأفلاطون.

وكلا الشعر والنثر مدينان في ظهورهما ورقيهما - كسائر الفنون - للدين والدولة بفضل عظيم: ينشأ الشعر مختلطا بالموسيقى مصاحبا للرقص في الحفلات الدينية، التي تحفلها الجماعات الأولى في مواسم آلهتها، وينفصل عن الموسيقى والرقص ويخرج من حظيرة الدين إلى حظيرة الدولة، فيمدح الملوك ويزين صورهم كما كان يفعل الشعر الاغريقي في عصر الطغاة، وعلى أيدي الكهنة يتألف أول ماتعرف الأمة من مبادىء النثر الفني، من نبوات مسجوعة وحكم وعقائد مدونة أو شفاهية وقصص عن الملوك والآلهة. ثم ينحاز الكتاب الناثرون كما انحاز الشعراء إلى بلاطات الملوك ودواوينهم، يزجون بضائعهم وينزلون آمالهم؛ ثم يستقل الشعر والنثر عن حظيرتي الديانة والدولة قليلا قليلا، بشيوع الرقي العقلي وانتشار الثقافة وتميز شخصية الفرد عن شخصية الجماعة، فيصبح كل منهما فناً غايته التعبير الجميل عن شعور الانسان بالحياة، وعلى قدر تحرر كل منهما من العلاقة بالكهان وبالحكام، وتخلصه من الغرض المادي يكون رقيه الفني وصدقه في أداء رسالة الحياة.

فبانتشار الحضارة والثقافة يرقى الشعر عما كان عليه في عهد البداوة، ويظهر بجانبه النثر فناً ثانياً مترجماً بالألفاظ عن شعور الانسان وتفكيره، منافسا له في كثير من مواضعه ومعانيه. فيتقاسمان النهوض بمهمة الأدب، ويظهر من الأدباء من يجمعون بين الفنين، يبرزون في كليهما أو يشتهرون بأحدهما فوق اشتهارهم بالثاني. ويشارك النثر الفني الشعر في كثير من خصائصه، أي خصائص الفنون جميعاً، كالموسيقية، والخيال، والمقابل، والتماثل، والتجاوب؛ بيد أنه وإن تشارك الفنان في شتى الخصائص والموضوعات، فما زالا متميزين في خصائص، مستقلا كل منهما دون الآخر بموضوعات هي به أشبه وهو على تأديتها أقدر. فللشعر قصب السبق فيما هو أدخل في باب الخيال والعاطفة والشمول والغموض أحياناً، وللنثر ما هو أقرب إلى التفكير والمنطق والدقة والترتيب والاستقصاء، ومن ثم يلجأ الشاعر الناثر إلى الشعر طوراً وإلى النثر تارة

فالشعر والنثر كلاهما قادران على تأدية أغراض الوصف والحكمة والعتاب والاعتذار والفكاهة؛ وربما رق النثر في كل ذلك وتشبع بالخيال حتى صار أشبه بالشعر، لا يميزه عنه سوى انعدام الوزن

ما اعتزّ من عزّوا بغيرك هاديا ... وبغيرك الدنيا رأتْ إذلالها

خطَرتْ تجر القيدَ تحسب أنها ... بلغتْ أمانيها أو استقلالها!

تشوى بحكم الفرد صاغ من العصا ... قلمَ المؤدّب يجتوى إملالها

تدعو وتنهض في الحياة مُضَلِّلاً ... جعَل المتاحَ من الأمور مُحالها

تتزاحم الشورى على أبوابها ... فتشيح عنها تبتغي أبطالها!

ويمتْ أكفاء الرجال هداتُها، ... وبَغى المواهب لا ترى استقلالها!

وأذُو البنين، كأنّ شرعتك انتهت ... وكأنّ عُدْوانَ الزمان أدالها!

وكأنّ بغي الجاهلية لم يزَل ... يُلغي الحقوق، ويزْدري سُؤالها!

ولعلّ من وأد البنات أثابها ... والجاهلية ترتضي إغفالها!

يا آسيَ التقوى: جفاها طبُّها، ... بكَ تستجير، فهل ترى إبلالها؟

ذاق الأمرّين الأساةُ، وأخفقوا؛ ... فمن الذي يشفي العقام عضالها؟

لجّت بصيحتها المشارقُ لم تجد ... كفا تحلّ بحزمها إشكالها!

نُفِي المعابدَ لا قنوتَ لخاشع ... فيها، ولا نَقَى هناك بلالها!

ما أكثر الداعين باسم هُداتها ... حتى إذا نُودُوا جفَوْا أقوالها!

ورأوْا مبادئها مسبّة جيلهم ... وكأنها لم تنتظم أجيالها!

هي تلك يا طه شريعة دينهم؟ ... أمْ تلك دنيا يشربون نهالها؟

ابراهيم مأمونه

وإن ساواه فى الموسيقية ؛ أما الحماسة والنسيب مثلا فالشعر أمهد لها سبلا وأرحب مجالا ، إلا أن مجىء النثر الحماسى خطابة فيكون له من رهبة الموقف وتعبير سماء الخطب وهيبة محضره عوض عما يمتاز به الشعر من خيال وروعة واستجاشة للعواطف ، ومن ثم كانت الخطابة من أشبه فنون النثر بالشعر ؛ وأما فى سرد الوقائع التاريخية أو القصص الفردية ، أو تقرير الحقائق العلمية والأدبية ، فالنثر أرحب بكل ذلك صدراً ، أطول باعاً . ومن ثم كان نقد الشعر والأدب عامة وتسديد خطى الأدباء وإظهار محاسن الشعراء من أهم وظائف النثر التى يضطلع بها إذا ماتوطد وساير الشعر جنباً لجنب

وقصارى القول أن موضوعات الشعر والنثر يتباعد طرفاها ، ويلتقى الطرفان الآخران حتى يختلطا ؛ وإن الروح الشعرى قد يكون فى النثر الجيد كما قد ينعدم من النظم الردىء ؛ ولما كان الشعر والنثر يعبران مشتركين عن شتى خوالج النفس الانسانية ، فمن الطبعى أن يرتقيا معاً فى عصور الرقى الانسانى وينحطا معاً فى عصور الانحطاط . بيد أنه يلاحظ بجانب ذلك أن أحدهما ربما ارتقى وفاز باحتفاء الادباء والثانى فى اخذال وقعود ، تبعاً لما تميل إليه نزعة الشعب فى عصر من عصوره ، فكما يختلف الفرد الواحد بين نزعة الخيال والعاطفة والخفة احياناً ، وبين نزعة التأمل الوقور والاستقصاء الهادىء للحقائق أحياناً حسب اختلاف أطوار النفس الانسانية الخفية الاغوار المتقلبة الاطوار ، كذلك تمر الأمم بعصور طموح ومغامرة يزدهر فيها الشعر والنثر الشعرى ، وبعصور هدوء وركود ، وتأمل على وفلسفى ، يغزر فيها النثر ويلعب دوراً كبيراً ويخفت صوت الشعر

فاذا نحن رسمنا لأطوار الشعر والنثر دورة ، كتلك التى رسمها أرسطو لنظم الحكم فى المدن اليونانية ، بين ملكية وارستقراطيه وهلم جراً ، كان أول أطوار تلك الدورة طورا شعرياً طويلا ، بلغ ذروته بنهضة الأمة بين الأمم ، ونيلها نصيباً وافراً من الحضارة والثقافة ، يلى ذلك طور نثرى يشتغل فيه النثر بنقد ما تجمع لديه من آثار الشعراء المتقدمين ، ويتخذل الشعر فى أثنائه أو عقبه مباشرة ؛ فاذا ما انبثت فى الأمة روح جديدة جاء طور شعرى جديد سابق أيضاً ، يليه طور نثرى وهلم جراً . ولعل فى تاريخ الأدب الفرنسى مثالا لذلك واضحاً : إذ سبق الشعر الفرنسى بالظهور على أيدى التروبادور ورونسار ، ثم نهض النثر على أيدى رابليه ومونتين فى عهد النهضة الأوربية ، ثم نهض الشعر مرة أخرى فى عهد لويس الرابع عشر على أيدى كورنيى وراسين ، ثم كان القرن الثامن عشر عهد نثر طويلا ظهر فيه فلتير وروسو ، ثم كانت النهضة الرومانسية الشعرية فظهر لامرتين وهوجو ، ثم نهض النثر بانتشار الحركة العلمية وذيوع القصة ، وظهر القصاصون كبلزاك وموباسان ، والنقاد كرينان وتين

يتشارك النثر والشعر - منذ ظهور النثر الفنى - فى تأدية رسالة الأدب ويتشاكلان موضوعات وغايات ، ويتراوحان صعوداً وهبوطا مع تعاقب العصور ، ويظهر النوابغ فى كل منهما ، وينال هؤلاء وأولئك حب المثقفين وإعجابهم ؛ بيد أن الشعر يظل آثر لدى المثقفين وأكثر استئثاراً بحفظهم واستشهادهم ، ويظل الشعراء أحظى بالرعاية والاهتمام ، وآثارهم أحظى بالدرس والنقد . وإلى الشعر والشعراء ينصرف الذهن أول ما ينصرف إذا تحدثنا عن الأدب أو فكرنا فى الأدباء ، أو أردنا الموازنة والاستشهاد أو التدليل على صحة نظرية . وبأسماء فحول الشعراء تسمى عصور الأدب المتتابعة فى تاريخ الأدب الانجليزى ، كل ذلك لما يمتاز به الشعر من تضمين المعنى الشامل اللفظ الموجز ، والنظرة النافذة القول الرصين ، وما يتوفر عليه من شرح العواطف والذكريات ، والآمال والأشجان والأطراب ، وما زال الانسان أكثر انجذاباً إلى العاطفة منه إلى الفكر ، وهو من ثم يؤثر الشعر على النثر .

نشأ الشعر العربى وارتقى فى البادية ، سابقاً للنثر ، إذ بلغ ما بلغه من الرقى على أيدى أصحاب المعلقات وأضرابهم ، والنثر لا يتعدى بعد الخطب القصار والحكم المنثورة والأسجاع المأثورة والوصايا المتفرقة . نعم كان للقبائل خطباء كما كان لها شعراء . ولكن العرب كانوا بالشعر أولع حتى عدوه معرض مفاخرهم ، وقالوا : « الشعر ديوان العرب » ، ولم يقولوا : « الأدب » ولا « الخطابة » . ولم تذع كلمة النثر حتى تحضروا وتثقفوا وانتشرت بينهم الكتب . وكان الشعر والنثر معا فى بدء أمرهما مختلطين بالدين والدولة ، فشاعر القبيلة كان وزير دعايتها بتعبير العصر الحاضر ، والشعر والسحر والكهانة والعرافة والنبوة والسجع كانت معانى وألفاظا متلاحمة الوشائج . وقد كان للدين بين العرب من أقدم عصورهم مكان ، وأخرجت جزيرتهم عدداً من الأنبياء عديداً ، وكان الشعر إلى ظهور الاسلام ينشد فى المواسم الدينية ، وتخاطب به الآلهة ، من ذلك قول بعض اليمانيين فى طوافهم :

عك إليك عانية عبادك اليمانية

ولم يفصم الشعر والنثر العربيان يوما علاقتهما بالدين والدولة ، بل ظلا طول عصورهما على اتصال بهما متين ؛ بل بفضل الدين احتوى النثر العربى على أثر فنى لا يجارى بلاغة ، بل هو نموذج البلاغة الذى ظل يحتذى ويدرس ويقتبس فى النثر والشعر معا طول العصور ، وهو القرآن الكريم ، وبقيام الملك على أساس دينى اتصلت علاقة الأدب بكلا الملك والدين ، وظل الشعر يتقرب إلى الحكام بالمدح ، والنثر يعمل فى دواوينهم ، ولم يخرج الأدب العربى خروجا تاما من طور خدمة الملوك ، إلى الطور الفنى الخالص المنزه عن كل غرض خارجى أو مطلب مادى ، وإنما ظل الشعراء

والكتاب يعتمدون على رعاية الأمراء، ويسخرون فنهم لخدمتهم

وتوالت أطوار الشعر والنثر فى تاريخ الأدب العربى: فسبق الشعر فى الجاهلية، وحل محله النثر فى صدر الاسلام متمثلا فى الكتاب الكريم وخطب الرسول وخلفائه وكتبهم وكتب عمالهم، واستعاد الشعر مكانته فى عهد الأمويين على ألسنة جرير والفرزدق والأخطل وجميل وكثير وابن أبى ربيعة وأضرابهم؟ وعند ذلك كان العرب قد تشربوا الحضارة والثقافة، فظهر النثر الفنى على أقلام عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ والبديع؛ وبلغ الشعر فى الوقت نفسه أوجه على أيدى معاصرى هؤلاء من الشعراء، كبشار وأبى نواس والطائى والبحترى وابن الرومى والمتنبى والمعرى، ثم أفل نجم الشعر بدءا من القرن الخامس وأفسده التعمل، وأعوزته روح الطموح والمغامرة التى غاضت من نفوس الأمة التى أرهقها المتسلطون، وبقيت للنثر بقية من قوة مستمدة من نضج الثقافة الاسلاميه، فكان العصر التالى طور نثر طويلا أنجب من النقاد والمؤرخين والكتاب أضراب ابن خلكان والنويرى والقلقشندى وابن رشيق وابن خلدون، ممن كان هم أكثرهم جمع الآثار الأدبية والتاريخية المتخلفة من العصور السالفة، وتنظيمها والتعليق عليها. ثم لحق الوهن والاسفاف النثر كما لحق الشعر. فلما كانت النهضة الحديثة، كان الشعر أسبق إلى النهوض والحياة والتخلص من شوائب الصنعة والتقليد، فالشعر أسبق من النثر إلى الازدهار وأسبق منه إلى الذبول.

كان الشعر أسبق إلى الظهور والرقى فى الجاهلية، وكان العرب يعدونه ديوانهم، وكانت له لديهم مكانة عظيمة، وقد ظلت له هذه المكانة على توالى العصور، على رغم ظهور النثر الفنى ورقيه وحصول الكتاب دون الشعراء على المراتب السامية كالوزارة؛ وظل الشعر أعلق بالنفوس وآثر بالحفظ والذكر، ولم يساير فى الحفظ والسيرورة من آثار النثر إلا القرآن الكريم، وهو مملوء بالروح الشعرى حافل بالتشبيهات والمجازات البليغة. ولما ارتقى النثر الفنى راح يقتبس خطى الشعر: يقتبس أياته ويضمن شطراته، ويتناول موضوعاته، ويحاكى موسيقاه ووزنه، فاصطنع السجع والازدواج والجناس، وأصبح السجع فى النهاية للنثر لازماً لزوم القافية للشعر. والحق أن الأدب العربى بفنيه الشعر والنثر اتسم دائما بالاحتفاء باللفظ وجرسه وتنميقه، والأسلوب وتقسيمه وتديجه، وقد ظل ذلك مستساغا مقبولا حينا ثم أفرط وسمج. وظل الشعر العربى شديد الحرص على فخامة الموسيقى ووضوحها واطرادها بلا اخلال، كالاخلال الذى يكثر فى الشعر الانجليزى ويلجأ إليه شعراء الانجليزية قصداً للتنويع واجتناب الاطراد الممل، وظلت القافية فى الشعر العربى كذلك واضحة جزلة مكونة فى الواقع من قافيتين صوتيتين، كما فى «عانيه» و«مانيه» فى البيت السالف الذكر، وهذا ما يعرف فى الانجليزية بالقافية المؤنثة، وقد دخلت الانجليزية نقلا عن الايطالية ولكن الشعراء سرعان ما نبذوها، لعدم ملاءمتها لطبيعة اللغة الانجليزية التى تميل الافراط فى الموسيقية نثراً أو نظما.

ولما ظهر النثر الفنى بجوار الشعر، ونبغ فيه الكتاب واحترفوا إنشاء الرسائل الديوانية، وحرصوا على التزود بكل أسباب الثقافة، والتحلى بكل موجبات الفضل، عالج أكثرهم الشعر طبعا أو تكلفا، فأثرت عن الحسن بن وهب وابن الزيات وابن الصولى وسعيد بن حميد وابن العميد وابن عباد والخوارزمى والبديع والجرجانى والعسكرى، أشعار قالها بعضهم تظرفا ورياضة للقريحة، وقالها بعضهم جادين فى التعبير عن خوالج صميمة وآراء صادقة. وقد قيل إن الجاحظ عالج قرض الشعر طويلا ثم أقلع حين لم يفلح. وكان البديع والحريرى يخالفان فى مقاماتهما بين شعر ونثر لا يكاد يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعروض، وفيما عدا ذلك يتساويان تنميقا لفظ وبلاغة إنشاء، ومن أجمل أشعار الكتاب قول الجرجانى من أبيات هى من غرر الشعر العربى: —

يقولون لى: فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
إذا قيل: هذا مشرب قلت: قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وقد كانت المقابلة والمفاضلة بين الشعر والنثر من هم نقاد العربية وكان أكثرهم يميل مع الشعر؛ على أنها مفاضلة لا موضع لها: فليس الشعر خيراً من النثر ولا النثر خيرا من الشعر، وإنما كلاهما ضروريان وكل منهما جميل فى موضعه، زد على ذلك أن أولئك النقاد كانوا يدخلون فى حسابهم اعتبارات خارجية لا صلة لها بالفن الصميم، بل هى شؤون اجتماعية أو سياسيه أو فردية صاحبت الأدب فى بعض العصور، فأصحاب الشعر يستدلون على أفضليته بأن الشاعر يخاطب الأمير باسمه مجرداً وباسم أمه وبصيغة المفرد، وبأن الشعر رفع قبائل كأنف الناقة ووضع أخرى كثير، وبأن الكذب ومدح النفس يقبلان فيه ولا يستساغان نثراً؛ وأصحاب النثر يؤيدون حجتهم بأن الرسول الكريم لم يقرض الشعر، وأن الشعراء يخدمون الكتاب ويأخذون هباتهم. وأن الكاتب يجلس والشاعر ينشد وهو قائم وهلم جرا.

نشأ الشعر والنثر الانجليزيان كذلك على صلة بالدين والدولة، وكان مزاولوهما الأوائل أمثال تشوسر وسبنسر وهوكر من رجال السياسة والدين والحرب، أو كانوا على اتصال بالساسة والمحاربين وعلماء الدين. ومن الكنيسة خرج فن التمثيل ذو الصلة الوثيقه بالأدب، فكان قوامه الشعر أولا على عهد شكسبير؛ ثم انحاز تدريجاً إلى النثر؛ وكان للانجيل أثر بالغ فى اللغة الانجليزية؛ غير أن الشعر والنثر مالبثا بعد ذلك أن انسلخا تدريجاً عن الملك والكنيسة

والأحزاب والأعيان ، واعتمد كلاهما مكان أولئك جميعاً على الجمهور القارىء ، ودخلا فى طور الفنون الخالصة التى لاغاية لها سوى وصف مشاعر الانسان وشعوره بجمال الحياة وغبطاتها ، وهو الطور الذى لم يبلغه الشعر والنثر العربيان تماماً ، بل قام من الأدباء الانجليز من ناصبوا الملكية والكنيسة ، مثل شلى وبيرون

وكان الشعر الانجليزى أسبق إلى الازدهار من النثر : فبلغ أوجه فى عهد اليزابث فى آثار شكسبير ومعاصريه ، وتجلت الروح الشعرية حتى فى النثر الفليل الذى خلفه ذلك العصر الحافل بروح الاقدام ، فهوكر مثلا وهو يدرس مسائل دينية يعرج فيصف الموسيقى وصفاً شعرياً رائعاً ؛ وتلا ذلك طور نثرى طويل فى القرن الثامن عشر ، بلغ فيه النثر الغاية من السلاسة ورحب الجوانب ، ثم كانت هبة قومية جديدة فنهض الشعر فى العهد الرومانسى نهضة باهرة ، وكان كثير من شعرائها كتابا حذاقا أيضا تفيض كتاباتهم النثرية بما تفيض به أشعارهم من روح رومانسية ؛ ثم ارتقى النثر فى أعقاب ذلك مرة أخرى ، فظهر من النقاد ماكولى وارنولد ، ومن القصصيين ثكرى ودكنز ، وما زالت القصة فى ازدهار مطرد

وبلغ النثر الانجليزى من الرقى الشكلى والموضوعى ما لم يبلغه النثر العربى : فظهرت فيه المقالة والصورة والترجمة والتأريخ والقصة الفنية . وبهذا كله تهيأ له أن يزاحم الشعر على مكانته ، لا سيما بفضل القصة والرواية التمثيلية ، بل هو انتزع الرواية التمثيلية من الشعر واستأثر بها . والقصة اليوم تستقل بأسماء أعلام الأدب الانجليزى ، وقد مارسها أكبر شاعرين محدثين : كبلنج وهاردى ، بل كانت ممارسة النثر بجانب الشعر دائما من أدب شعراء الانجليزية ، يبسطون فيه آراءهم فى النقد الأدبى والأحوال الاجتماعية .. فكان دريدن وكارلى وبوب الشعراء مثلا من أوائل من كتبوا المقالات ، أما كبار شعراء العربية فقلما روى لهم نثر مطنب

على أن الشعر الانجليزى وإن زاحمه النثر فى العصر الحديث هذه المزاحمة . واستأثر دونه بأكثر احتفال الأدباء والقراء ، لم يفقد موضعه الأثير من نفوس المثقفين ، وإنما هو يجتاز مثل عصر الركود الذى شهده فى القرن الثامن عشر ، إذ أن النثر والشعر كما تقدم يتجاذبان النفس الانسانية على اختلاف العصور ، بيد أن الناس حتى فى مثل هذا الطور لا ينزعون عن حبهم للشعر . بل يلتفتون إلى الماضى يروون صداهم من عبابه الزاخر ، ولا تزال لشكسبير وملتون ووردزورث وشلى منازل فى قلوب قراء الانجليزية ، كمنازل ابن الرومى والمتنبى والمعرى فى قلوب قرائهم ، لا يحتل مثلها الكتاب الناثرون فى كلا الأدبين

فخرى أبو السعود

بين يومى الهجرة والفتح

حمامتان تتناجيان

للأستاذ محمود غنيم

قالت الأولى : هلمى يا أختاه نغادر سطح هذا الغار - غار ثور - قبل أن يدركنا هذا الجيش اللهام ، فيغطينا العثير الذى تثيره سنابك خيله . يالله ! إنه ليحث الخطى نحو قومنا - قريش - ولا قبل لقومنا به ، عشرة آلاف أو يزيدون - إن صدق حدسى - مع كل منهم سيفه القاطع ودرعه المنيعة ، ويقين أقطع من سيفه وأمنع من درعه . يا لله لقريش ! من أين أقبل هذا الجيش ؟

قالت الثانية : لقد جاء القوم عن طريق يثرب ، لكنى لا إخالهم جميعا يثربيين . أنظرى ، هذه خيل من سليم ، وهذه من مزينة ، وهذه من غطفان ، هم أمشاج أخلاط ، من كل فج وعلى كل لون ؛ ولكن شيئا لا أكاد أتبينه ، تبدو أنواره على أساريرهم ، ويشع بريقه من عيونهم - يؤلف بينهم ، ويجعل منهم كتلة واحدة كأنهم بنيان مرصوص

بيد أن شعورا داخليا فى نفسى يجعلنى لا أرهب هذا الجيش ، حتى لا كاد أقف على ذباب سيوفهم وفوق شبا رماحهم آمنة مطمئنة ، كأننى فوق منبر الحرم ، أو على حافة مقام ابراهيم . أنظرى معى ، أنعمى النظر ، ألا ترين تلك الكتيبة الخضراء التى تتوسط الجيش ؟ ألا ترين هذا الرجل الذى يتوسط تلك الكتيبة الخضراء ، يومىء للقوم فيسيرون ، ويقفهم فيقفون ؟ إن لى عهدا بهذا الرجل - إن لم تخنى الذاكرة - آه ! تذكرت يا أختاه ، أليس هذا صاحبنا بالأمس الذى استضفناه فى هذا الغار ثلاثة أيام منذ عشرة أعوام ؟ إنه محمد ، محمد ، محمد ، ألا تذكرين ؟